الناقد والمترجم المصري د. صبري حافظ:

الرواية العربية تمثل الجانب المضيء في إنتاجنا الأدبي المعاصر

❖ حاوره – محمد ولد الشيخ

الحوار مع قامة علمية ونقدية كالأستاذ الدكتور صبري حافظ يشعرك بأن الثقافة العربية بخير وأنها لا تزال قادرة على إحداث التأثير الحضاري المطلوب، وفي هذا الحوار مع «الشرق الثقافي» تناول د. حافظ آخر إنتاجه الفكري المرتبط بثورة الربيع العربي، واتجاهات الثقافة العربية في ظل ما سماه «سيطرة الثقافة الغربية» على أنماط التفكير وتبعية الثقافة العربية، وعدم قدرتها على التأثير الحضاري المطلوب، وهو أمر أسهم فيه ما سماه الدكتور حافظ بـ «خيانة المثقفين»، وهو عنوان آخر كتبه التي قدمها للمطبعة مؤخرا، ويواصل حافظ حديثه عن البارقة المضيئة في ثقافتنا العربية، متمثلة في الفن الروائي، مرورا بعلاقاته الثقافية التي جعلته يبدع 13 كتابا باللغة الإنجليزية مثلت جسرا ثقافيا بين ثقافته الأم واللغة الإنجليزية وهو ما يعني بروز جيل من حملة الثقافة العربية إلى الآخر ينهون عصر الاحتكار الاستشراقي الذي لم يخل من الدس والتلفيق وهو دس عانت منه ثقافتنا طويلا، كما يؤكد المفكر الكبير إدوارد سعيد الذي يؤكد د. حافظ أنه أحد أعظم النقاد في القرن العشرين، وفيما يلي مجريات الحوار:

❖ انطلاقا من المؤتمر الذي نظمته جامعة قطر مؤخرا حول اتجاهات الأدب، ما هي أبرز الاتجاهات في وقتنا الراهن التي تنال اهتمامكم؟

❖ أبرز الاتجاهات الحديثة التي تنال اهتمامي حاليا في مجال الأدب هو موضوع النقد الثقافي ونقد ما بعد الاستعمار وهو مصطلح جديد، ولذلك فعندما طلب مني تنظيم مؤتمر أدبي دولي في مجال النقد تستضيفه جامعة قطر قررت أن يكون موضوع رد الكتابة المغايرة هو الأساس لهذا المؤتمر، وهو موضوع يضع في قلب الاهتمام هذين المنهجين النقديين الحديثين: فالنقد الثقافي ونقد ما بعد الاستعمار يعود الفضل في تأسيسهما للناقد الفلسطيني الكبير إدوارد سعيد، وهو في رأيي الشخصي، أحد أهم نقاد الأدب في القرن العشرين، إذ يضاهي مستويات كبار النقاد من أمثال ميخائيل باختين في روسيا، ورولان بارت في فرنسا. فقد كشف إدوارد سعيد من خلال منهجه الذي أدخل البعد الجغرافي وعلاقات السلطة والهيمنة في الدرس النقدي عن تاريخ طويل من المعاناة والإساءة التي مرت بها شعوب العالم جراء الاستعمار الذي أثر سلبا على الثقافات العالمية لصالح الثقافة المهيمنة في عالمنا الواسع وهي ثقافة وحضارة المحتل.

فخرج من إهاب كتاباته المهمة في هذا المجال نقد ما بعد الاستعمار، وتبعه النقد الثقافي.

وقد اخترت نقد ما بعد الاستعمار موضوعا للمؤتمر. ونجحت في أن يستضيف المؤتمر الأخير علمين بارزين في مجال النقد الأدبي المعاصر، هما: تيري إيجلتون وروبرت يانغ، والأخير من أبرز تلامذة إدوارد سعيد فكريا ونقديا ومن أكثرهم إضافة إلى مشروعه النقدي الكبير.

❖ كنت من النقاد الأكاديميين الأوائل الذين تصدوا لثورات الربيع العربي، بالتزامن مع تقاعس كثيرين، لماذا؟

❖ ثورات الربيع العربي شغلتني كثيرا خلال السنوات الثلاث الأخيرة، في مصر خاصة، وبالتالي استقطبت هذه التغيرات الجذرية المهمة اهتماماتي الآنية، فكتبت كتابا بعنوان: «خيانة المثقفين.. تأملات في علاقة المثقف والسلطة»، ويتناول دور المثقف فيما جرى قبل وبعد الربيع العربي، أما الكتاب الثاني الذي أوشك على الانتهاء منه فله صلة مباشرة بهذا المتغير، وهو عودة إلى الماضي الثوري القديم في مصر الحديثة المتمثل في الثورة العرابية عام 1881، حيث سافرت في إجازة قبل أشهر إلى سريلانكا وهي الجزيرة التي نفي إليها الزعيم الوطني أحمد عرابي بعد فشل ثورته وأمضى فيها 18 عاما وتتبعت آثاره هناك، فهالني ما رأيت من تأثير كبير للرجل وهو تأثير غائب كليا عن الخطاب التاريخي المصري، حيث يرجع الفضل لهذا الزعيم الوطني في إحداث ثورة ثقافية واجتماعية وعلمية وسياسية في هذا الجزء من العالم، خاصة لدى الجالية المسلمة في هذا البلد، وهي جالية عانت كثيرا من التهميش منذ الاحتلال البرتغالي لسيرلانكا مرورا بالاحتلال الهولندي والبريطاني لهذا البلد. ولذلك وجدت أن هذه الفترة الذهبية تمثل مرآة مهمة تمكن من خلالها رؤية كل ما يدور في واقعنا الراهن من أحداث، وكنت دائما أقول: «ما أشبه الليلة بالبارحة»، حيث نكرر نفس الأخطاء التي وقعت فيها الثورة العرابية، ولا نتعلم من تاريخنا ولعل أكثر أمراض الثقافة العربية هو فقدان الذاكرة التاريخية، حيث لا نستفيد أبداً من أخطائنا.

غياب المثقف

❖ وكيف ترى واقعنا الثقافي العربي الراهن وسط غبار ثورات الربيع العربي؟

❖ الربيع العربي أثار بشدة قضية دور المثقف في واقعه، ومدى نجاح السلطات والأنظمة العربية في احتوائه وتدجينه، واستخدامه في تحقيق أغراضها، ومدى غياب المثقف المستقل الذي يشكل ضمير أمته الثقافي ويحافظ على أنبل قيمها الثقافية والأخلاقية معا. هذا المثقف الذي يضع مستقبل الثقافة واستقلال الوطن نصب عينيه، يوشك أن يكون مهمشا ومحاربا وغائبا، وقد تناولت هذا المبحث أيضا في كتابي عن الثورة العرابية من خلال مقارنة بين الأديب والمثقف عبد الله النديم، مثقف الثورة العرابية البارز، الذي أخلص للثورة وجسد ضميرها الوطني، فعانى المطاردة والنفي ومات وحيدا في منفاه. وبين مثقف آخر من نفس المرحلة، وهو علي مبارك الذي خان الثورة وآثر العمل مع الخديوي، بل ويسر احتلال الإنجليز لوطنه، فأصبح وزيرا للمعارف ونجما ثقافيا لمرحلة ما بعد هزيمة الثورة. وفيما يمتلئ العالم العربي اليوم بأحفاد علي مبارك الذين يشوهون الثورات، بل ويشوهون المثقف الحقيقي والمستقل، نجد أن أحفاد عبد الله النديم لا يزالون يعانون من النفي والتهميش.

❖ من خلال متابعاتكم العلمية.. هل حدث تطور في الدراسات اللغوية والأدبية العربية يوازي ما حصل خلال القرون السابقة من ازدهار؟

❖ هناك فارق جوهري بين الثقافة العربية في عصر ازدهارها الكبير في عصر الدولة العباسية وما هو حاصل الآن أو في فترات سابقة، حيث كان لدى الثقافة العربية مشروع معرفي كبير، وكانت هي التي تختار ما تستوعبه من الثقافات الأخرى، وكانت تلك الثقافات شبه غائبة ولا تلعب دور الهيمنة على ما نختاره وما نستخدمه من ثمارها، أما في مرحلتنا الراهنة، فالوضع مختلف، حيث تسيطر الثقافة الغربية، ليس فقط على الواقع السياسي، وإنما أيضا على أنماط التفكير، وعلى أشكال التبعية المختلفة، فنحن نتعامل الآن مع منتج ثقافة منتصرة ومهيمنة على عكس ما كان يقوم به كبار نقادنا في العصور القديمة الزاهرة، حيث كانوا يتعاملون مع الثقافات الأخرى من موقف الهيمنة عليها والاعتزاز بالثقافة العربية المنتصرة، في حين أننا الآن نعاني من ثقافة تابعة ومنهزمة، لأنها نتيجة واقع سياسي واجتماعي مهزوم! وهذا ما يجعل علاقتنا بالثقافة الغربية المنتصرة والمهيمنة علاقة تبعية وليست علاقة حوار وجدل وندّية.

❖ كيف ترى واقع الرواية العربية في ظل ما حققته من حضور جلي مضطرد؟

❖ من خلال متابعاتي في السنوات الأخيرة لأشكال الإبداع العربي من المحيط إلى الخليج يمكنني الجزم بأن الرواية العربية تشكل الجانب المضيء في الثقافة العربية الراهنة، حيث تخرج علينا دوما بأعمال جميلة، ومهمة من مختلف أنحاء العالم العربي، فلم تعد الرواية حكرا على المشرق وحده كما كان الحال في الشطر الأكبر من القرن الماضي، وإنما انفجرت الرواية حتى في أكثر البلدان غربة عنها، كما حدث في السعودية، حيث نجد هناك ما يمكن تسميته بـ «الانفجار الروائي»، الذي كانت له جذوره في أعمال الروائي الكبير عبد الرحمن منيف واستمرت مع تركي الحمد، وهناك عشرات من الأعمال الروائية والأسماء اللامعة، ناهيك عن الازدهار الروائي في المغرب العربي: في تونس، والجزائر، والمغرب، وفي موريتانيا، وليبيا.

ويضاف إلى ذلك الازدهار ظهور الجانب الجديد والرائد في عالمنا العربي وهو رواية الصحراء التي يعتبر فارسها بحق الكاتب الروائي إبراهيم الكوني الذي كتب عن اتساع وعمق الصحراء الكبرى ما لم يكتبه غيره من كتاب العرب في الثقافة العربية التي تخصصت في أدب الصحراء.

صالون النقاد

❖ خلال وجودك في جامعة قطر، هل فكرت في تأسيس ناد للنقد الأدبي بالجامعة أو بقطر بوجه عام وهل مثل هذه الفكرة قابلة للتطبيق؟

- هذا الموضوع يستحق المناقشة بكثير من الاهتمام وهو أمر قابل للتطبيق، خاصة أنه يوجد في قطر عدد كبير من أبرز النقاد والمثقفين في الساحة العربية، سواء بالجامعة أو خارجها، من أمثال محمد لطفي اليوسفي وفخري صالح ومحمد جمال باروت وعبد الله إبراهيم وأمير تاج السر والحسن بكري.. وغيرهم من النقاد الكبار، ويمكن لهذه الفكرة أن تزدهر، خصوصا أن ثقافتنا العربية في كثير من جوانبها وليدة الصالونات الأدبية أو المقاهي، سواء في القاهرة أو بغداد أو دمشق وبيروت.

❖ يلاحظ بعض المتابعين لإنتاجكم أن وجودكم في قسم الأدب باللغة الإنجليزية قلل من إمكانية الاستفادة من ثرائكم الفكري، فكيف يمكن حل هذه الإشكالية؟

❖ حدث أنني في بداية حياتي الأكاديمية، ولأسباب كثيرة ومعقدة، لم أتمكن من العمل بالجامعة المصرية، فعملت بالجامعات الغربية المختلفة ثم استقر بي المطاف في جامعة لندن لأكثر من 22 عاما. وهي مصادفة أعتبرها جميلة ومهمة، لأنني استطعت من خلالها أن أقوم بدور ما في الكتابة عن ثقافتنا العربية باللغة الإنجليزية. ووضعها على خريطة الدرس المهني، خاصة أدبها الحديث والمعاصر في العالم الغربي عامة والعالم الناطق بالإنجليزية خاصة، حيث نشرت 13 كتابا باللغة الإنجليزية وتم اختيار أحدها لجائزة أفضل عمل أكاديمي في أمريكا. كما أنني كنت أحد محرري أكبر مختارات من الأدب العالمي وهي مختارات لونجمان للأدب العالمي Longman Anthology of World Literature حيث استطعت أن أضع ضمنها الكثير من النصوص الأدبية منذ عصر الشعراء الصعاليك وحتى نجيب محفوظ ومحمود درويش وإبراهيم الكوني وحنان الشيخ وأدونيس وإيميل حبيبي وعبد الرحمن منيف وغيرهم. حيث تدرس هذه النصوص الآن في معظم الجامعات الأمريكية، فهذا الدور برأيي مهم، لأنه يقدم ثقافتنا بأقلامنا، بعيدا عن دس المستشرقين وتحيزهم. وكانت دعوتي للعمل بجامعة قطر هي أول جامعة عربية أعمل بها، وبالتالي يمكنني القول إنني أمارس عملي كجسر بين الثقافة العربية والإنجليزية، وهو جسر مزدوج الاتجاه وليس باتجاه واحد.

❖ كيف ترى واقع الترجمة العربية حاليا؟

❖ لاشك أن الترجمة تلعب دورا محوريا في الحوار الحضاري والتواصل الفكري والتلاقح بين الثقافات المختلفة، ولكن من المهم أن يصاحبها حوار ثقافي مع الآخر، وجدل واسع حول الأعمال المترجمة وكيفية الاستفادة منها أو تسكين رؤاها وكشوفها في قلب الثقافة العربية ومن أجل تحقيق مشروعها الخاص بها.

> الربيع العربي أثار التساؤلات حول دور المثقف ودور السلطة في تدجينه

> أكثر أمراضنا الثقافية فقدان الذاكرة التاريخية فلا نتعلم من أخطائنا!

❖ هل الخلل الملاحظ في حركة الثقافة بسبب النخبة أم بسبب الجمهور أم هو مرتبط بالجانب الحضاري؟

- المسؤولية مشتركة، فلو كانت النخبة تتعامل بمصداقية واستقلال فكري وتجرد ذاتي تجاه قضايا أمتها وتتعامل مع القضايا المختلفة باستقلالية بمصداقية وعقل نقدي لنجحت في التأثير الإيجابي في الجماهير ولخلقت اهتماما بما تكتبه، ولكن لأن الكثير من المنتمين للثقافة لا يقومون بالدور المنوط بهم، فإن الجمهور لا يلتفت إلى ما يكتبونه، وبرأيي أن المسؤولية الأولى تقع على عاتقنا نحن، بتخلينا عن ثقافتنا وعدم إعطائها الدور الحضاري المنوط بها، ففقدنا الصدارة وتخلفنا فكريا وثقافيا، ولست ممن يحبذ وضع اللوم على الاستعمار والآخر في كل ما نقع فيه من أخطاء نصنعها نحن بأنماط تفكيرنا، واستنامة مثقفينا إلى لعب دور التابع للمؤسسة المهيمنة مهما كانت طبيعتها.

مشروع الكلمة

❖ حدثنا عن مشروعك الثقافي الرائد (الكلمة) أسباب الاختيار وظروف الاستمرار؟

❖ «الكلمة» مشروع ثقافي فكرت فيه قبل سنوات حينما اكتشفت أواخر التسعينيات من القرن الماضي أن هناك جيلا عربيا لا يتابع المجلات الأدبية والثقافية، ويقرأ على الإنترنت فقط، بسبب تدهور الوضع العربي وعجز الشباب الاقتصادي حتى عن شراء المجلات، فقد قال لي صديقي العزيز محمود درويش: إنه يشعر بالمرارة، لأن مجلة «الكرمل» التي كان يحررها، وكانت مجلة ثقافية من الطراز الرفيع لا توزع إلا أعدادا قليلة. كانت شبكة الإنترنت قد بدأت تستقطب الشباب، وكانت هناك مواقع جديدة تنشر ما اتفق دون معايير المجلة الأدبية الجادة، مما جعلني أفكر في طريقة لإنتاج مجلة جادة تضاهي تلك المجلات التي تربينا عليها، مثل مجلة «الآداب» البيروتية للدكتور سهيل إدريس، و«المجلة» المصرية التي كان يرأس تحريرها الراحل الكبير يحيى حقي، حيث تتميز تلك المجلات بالمستوى الرفيع، علميا وفنيا، وانتظامها في الصدور. وحرصت على أن تكون المجلة مفتوحة للكاتب المبدع من موريتانيا إلى العراق ومن سوريا حتى السودان، وبعد تفكير ودراسة تأكدت من أن الإنترنت هو أفضل طريقة لإيصال الرسالة للشباب العربي المتعطش للمعرفة، وهو ما تم، حيث تابع المجلة خلال سنتها الأولى أكثر من 100 ألف قارئ، ووصل العدد مؤخرا، وبعد سبع سنوات من الاستمرار والعمل الدءوب إلى 600 ألف قارئ من مختلف أنحاء العالم. ومن الأمور التي ميزت المجلة أنها تنشر في كل عدد رواية كاملة وقد وصلنا بعد سبع سنوات من الصدور الشهري المنتظم إلى العدد رقم 85 ونشرنا 85 رواية وهو عدد ضخم جدا، كما حافظت المجلة على صدورها المنتظم ومستواها الفني الرفيع بشهادة قرائها.